مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 11/ العدد: 02 (2023)، ص: 431-443

مزالق الحداثة عند اريك فروم

Modernism's dowfall by Erich Fromm

بن اسباع طارق[1]، د/خالف نورية[2]

[1] مخبر التربية والأبستمولوجيا (المدرسة العليا للأساتذة. بوزريعة) ، جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، tariq.bensbaa@ummto.dz

[2]المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة(الجزائر)، khalef.nouria@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/23 تاريخ القبول: 2023/08/01 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص:

على الرغم من وصف عصرنا بأنه عصر التقدم العلمي والبحث عن الوسائل التي تهيئ للإنسان كل سبل الراحة وتضمن له الرخاء والرفاهية، عصر تسيد الانسان على الطبيعة وتسخيرها لصالحه، إلا أن المفكر الألماني اريك فروم(1900-1980) لمس انحرافا في الحضارة الغربية وخللا في أسسها حينما قدست المادة والاستهلاك وعبادة القوة حتى أصبح الإنسان كما يقال ترسا في آلة، فمعظم منجزات هذا العصر سارت في اتجاه معاكس للطبيعة الإنسانية مما أنتج إنسانا مضطربا ومريضا. فالكثير من الأزمات والأمراض تنهش جسمه وتعمل على تقويض أركانه وتهديد حضارته ومنجزاتها.

إن التطور الذي شهده الإنسان والتقدم الذي يعيشه يوميا خلق لديه على العكس أزمات عديدة منها ما يتعلق بذاته ومنها ما هو مرتبط بالآخرين، الشيء الذي جعله أكثر اغترابا وتشيؤا وفقدانا لهويته الحقيقية. يلهث وراء المادة ولا يتحدث إلا عن الاستهلاك.

كلمات مفتاحية: الحداثة، الحضارة الغربية، الذات الإنسانية، الاغتراب، التملك

Abstract: Eric Fromm, despite the scientific and intellectual progress and despite seeking all means of comfort and prosperity for mankind, sensed a certain aberration within the western civilisation as it valued materialism and consumerism, and glorified power until it made of a

human merely a automaton. The majority of this civilisation's achievements took an opposite path to human nature, which led to the making of disturbed and mentally ill individuals. A plethora of sicknesses and despairs tire their bodies, weaken their souls, threaten their civilisation, and challenge his achievements.

Fromm noted that the progress man achieved led to several identity issues. Issues between him and his inner self. He became increasingly alienated and materialistic and made him lose his identity due to the limits of his own understanding and due to the total surrender to his consumeristic desires

Keywords : modernity.westren civilisation. Humanself. Aliénation. Possession.

***المؤلف المرسل:** بن اسباع طارق

1. مقدمة

تأثير الاقتصاد والمال على طبيعة العلاقات الاجتماعية والروابط البينية لا يمكن أن ينكره أحد ، كما لا يمكن الشك في أن الهدف الأساسي للتنمية الاقتصادية هو التمتع وإشباع رغبات النفس البشرية وبالتالي خدمة الإنسان، لكن واقع العالم الغربي الذي يترنح بين انفجار علمي وثورة تكنولوجية باهرة وبين معاناة الإنسان وفقدان ذاته وضياعه يضعنا أمام مفارقة سنحاول الوقوف عليها من خلال محاولة بيان زيف أسس هذه الحضارة كما قدمه الفيلسوف الألماني " إريك فروم" الذي طالما ركز في كتاباته على نقد المجتمع الغربي، وكان تركيزه أكثر على الإنسان بغية إصلاح وضعه ومحاولة إنقاذه وتعديل صورته او بالتالي بناء مجتمع سوي.

تظهر أهمية دراسة هذا الموضوع من خلال تسليطها الضوء على ظاهرة تميز المجتمع الغربي خاصة وهي من القضايا متعددة الجوانب، وأكثر من ذلك هي منطلق ومبدأ للحديث عن الفرد السليم والمجتمع السوي اللذين يسعى "فروم" لتحقيقهما وتشييدهما، وتهدف هذه الورقة إلى الوقوف على الخلل والأسس الوهمية التي تميز هذا المجتمع سوآءا ما تعلق بالحياة الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية...

هذه الأهداف وأخرى سنحاول تحقيقها من خلال طرح الإشكالية الأساسية التالية:

كيف للتطور والتقدم الهائل في جميع المستويات أن يساهم في خلق نوبات إفلاس المجتمع الغربي حسب فروم؟ وماهي مآزق الحداثة ومآلاتها السلبية؟

وعليه هل تحقق وعد العلماء في بناء عالم متين وإنسان يتسيد على الطبيعة؟

وما تأثير التقنية على الحياة الروحية والقيمية للإنسان في نظره؟

وعملا بالقاعدة الإبستمولوجية القائلة إن طبيعة الموضوع هي التي تحدد طبيعة المنهج فإننا اعتمدنا هنا على المنهجين التحليلي والوصفي كأفضل آلية تناسب هذا الموضوع.

ولسبر أغوار هذه المشكلة ومعرفة كنه عملية التشريح التي قام بها فروم سعيا منه لفضح الحداثة وكشف تناقضاتها سنحاول أولا الوقوف على حقيقة الحداثة لنضع أيدينا بعد ذلك على تأثيرها السلبي على الذات الإنسانية سواءا ما تعلق منه بمشكلة التملك التي صارت تميز الانسان الحديث أو النيكروفيليا التي سنشرحها لاحقا (NECROFILIA)وكذا عبادة السلع.

2.الحداثة و ضياع الذات الإنسانية:

الحديث عن مهمة "فروم" في نقد المجتمع الغربي تأتي في سياق المهمة الأساسية التي أخذتها مدرسة فرانكفورت على عاتقها، وهي التركيز على النقد وكشف تناقضات المجتمع الغربي بالموازاة مع الاهتمام بالاغتراب والتشيؤ كأمراض مميزة له، وبيان علاقتها المعقدة بمثل عصر التنوير وقيم الحداثة.

إن ما اضطلعت به النظرية النقدية هو الكشف عن أسس قيام المجتمع الغربي وتناقضاته بداية من مراجعة التراث الأوروبي، استنادا على أدواتها التحليلية والنقدية متعددة الجوانب، وكما " عني كل من هوركايمر وماركيوز بدراسة المشكلات الفلسفية، أوكل الجانب النفسي بالدراسة لـ "إريك فروم (حكيمة، 2000، صفحة 6)الذي بحث في أبعاد وأشكال هذه الأزمة التي أصبحت تهدد الوجود الإنساني ولم تعد تعبر عن تلك القيم التي كانت تهدف إليها فلسفة الأنوار وتسعى إلى ترسيخها الحداثة.

هذه الأخيرة من المفردات الجديدة الذي أخذت قسطا وافرا من التحليل والبحث و مفهومها خاضع لتوجهات نظر مختلفة و مقاربات متنوعة، ما يجعل تحديد مدلولها و معناها أمر صعب المنال و سيبقى مجرد اجتهاد يعبر عن وجهة نظر صاحبها و نتيجة لمذهبه الفكري و انتمائه العقلي، ورغم ذلك فهي في الأخير من المفاهيم الحضارية التي تتسم بالشمولية ما دامت تمس كل نواحي الوجود الإنساني.

وتعتبر الحداثة كنمط من التفكير جاء في سياق تاريخي و فلسفي خاص وهي " تعبر عن لحظة فاصلة للماضي القديم عن الجديد والحديث، ففي اللغة الفرنسية مصطلح (Moderne) بصورته اللاتينية (Modernas) استخدم لأول مرة في أواخر القرن الخامس لتمييز الحاضر الذي أصبح مسيحيا على المستوى الرسمي عن الماضي الروماني الوثني، و يعبر المصطلح (Moderne) عن الوعي بحقبة تتصل بالماضي و يعد نتيجة الانتقال من القديم إلى الجديد" (بروكر، 1995، صفحة 199). فهي عملية انتقال فكري وحضاري وثورة على نمط قديم.

ويبدو من خلال هذا أن القطيعة مع الماضي هي من أهم خصائص الحداثة سعيا منها دائما لتحقيق الأفضل للإنسان وللمجتمعات فهي عملية تغيير في كل شيء كان ثابتا ومميزا للفترة السابقة وثورة على كل ما هو قديم في مجال الفكر والقيم

والحياة السياسية ومجال الأدب والكتابة، هذا التغيير والثورة الشاملة مرتبطان بصورة كبيرة جدا بالعقلانية إلى درجة أن أصبح البحث في الحداثة مرهون بالخوض في العقلانية فهي مفتاحها وروح الإنسان الحديث.

والعقلانية ((RATIONALITY من شأنها نزع الطابع الوهمي عن العالم والقضاء على العبث والفوضى وظلامية العصور الوسطى هنا جاء العقل كشرط وأساس لهذه العملية. " فالمعقولية هي قبل كل شيء حقل فيه تنتظم معارفنا وتتحدد تدخلات الانسان لفهم الطبيعة والحياة فهما يقترب من حقيقة واقعها" (التريكي ف.، 2008، صفحة 28). و يترتب عن هذا أن الحداثة تقوم بالأساس على عقلنة مجالات الحياة بصورة أو أخرى فتارة عن طريق استيعاب معطيات الماضي و تجاوزها و تارة أخرى بفعل التكيف مع المعطيات الراهنة و الاستعداد للتعامل مع التطورات الجديدة .

و قد قدم المفكر المصري" عبد الوهاب المسيري " (1938-2008) مفهوما للحداثة يشمل مكانها و زمانها و أهم مبادئها و أهدافها إذ يقول : " ظاهرة انطلقت من أوروبا مع الثورة الفرنسية عام 1789 م، و استطاعت أن تحدث التغيير في النظام السياسي من النظام الملكي إلى الديمقراطي الذي يقوم على سلطة الشعب و المجالس الممثلة للشعب، و اعتماد الليبرالية نظاما اقتصاديا، و المساواة بين الجنسين على الصعيد الاجتماعي، و إلزامية التعليم للأطفال، و الانتقال من نموذج الجماعات والطوائف الدينية المتحاربة إلى المواطن، لا ابن الطائفة أو الدين، و تذوب بذلك الطوائف و الأديان في مدنية علمانية واحدة لا تمييز فيها على أساس عرقي أو ديني و بهذا تكون علاقة المواطن بالدولة لا سلطة أخرى" (التريكي ع.، 2003 ، صفحة 349) .

إن الإنسان المعاصر صورة موحدة خلقتها و بلورتها الشركات المتعددة الجنسيات و هندسها المجتمع الرأسمالي ، فهو أصبح سلعة و بدأ يتحول إلى شيء من الأشياء التي يصنعها بنفسه ، هكذا غدت قيمته قابلة للبيع يتحكم فيها قانون العرض و الطلب ، وصار في علاقة حميمة مغرما بالأجهزة الإلكترونية ، جراء هذا صار يشعر بأنه سجين ذاته ،يخاف الحرية و يعبد الأصنام الحديثة ، مجرد مستهلك ، فيموت روحيا ، و هذا الموت الروحي و شعوره بفقدان و ضياع ذاته الحقيقية – الذات الإنسانية – هو الخطر الأكبر على البشرية .

يرى فروم بأن هناك العديد من الأشياء التي لا تروق له في المجتمع الغربي الصناعي ويكرهها إذ يقول " أولا أود أن أعبر عن كرهي لحقيقة أن كل شيء و كل شخص تقريبا للبيع ليس فقط السلع و الخدمات بل الأفكار، الفن، الكتب، الأشخاص، القناعات الشعور، الابتسامة، كلها تحولت إلى سلع و كذلك الإنسان كله، بكل جوارحه و إمكانياته" (فروم، 2013، صفحة 42).

وقد جاء هذا نتيجة لبنية وعقيدة المجتمع الصناعي الحديث، هي تشكل في مجملها أعراضا مرضية تنهش جسم الانسان وتفكك بناء المجتمع وتهدده بالانهيار، مادام كل شيء معروضا للبيع، و عندما يكون الانسان ذلك الكائن المميز الواعي للبيع فهناك بالذات تنتهي خرافة الحداثة.

ويصف فروم الناس أنهم أكثر انجذابا إلى عمليات السكون والعمليات الميكانيكية من انجذابهم إلى عمليات الحياة والعيش، لقد سمى انجذابهم ذاك الانجذاب إلى ما هو ليس حيا مستخدما كلمات ميغل دو أونامونو(Miguel de Unamuno 1864 - 1936) مجامعة الموتى و الانجذاب إلى كل ما هو حي.

هنا يمكن الإعلان عن موت الانسان و ميله إلى كل ما هو آلي، و هذه الحالة سماها " فروم " بـ " النيكروفيليا " .

والنيكروفيليا ((NECROFILIAمن الظواهر المرضية ذات الطبيعة النفسية، ترتد إلى النمو غير الطبيعي، النمو المشوه، والاضطرابات النفسية التي عادة ما تكون نتيجة الفشل في بلوغ مرحلة ما. ويمكن وصفها بأنها " الانجذاب العاطفي إلى كل ما هو ميت، ومتفسخ ومتعفن وسقيم. إنها الشغف بتحويل ما هو حي إلى شيء غير حي وبالتدمير من أجل التدمير والاهتمام الحصري بما هو ميكانيكي خالص،

و هي الشغف بتفكيك كل البنى الحية"(فروم، 2006، صفحة 96) ، إنها صورة من صور انحراف الدافع إلى الحياة ، فالطاقة المسؤولة عن الحياة و التي لم يتم استغلالها في ذلك تتحول إلى العكس من ذلك إلى طاقة لتدمير الحياة و وسيلة للموت.

و قد مكن التحليل النفسي للسلوك التدميري " فروم " من التمييز بين طبعين يسكنان الإنسان أحدهما الطبع النيكروفيلي و الذي يعده من أهم تجليات العدوان الخبيث ، و لا يدل مصطلح النيكروفيلي بالضرورة – حسب فروم – على عمل غير طبيعي و منحرف و إنما هو يعبر عن خصلة طبع ، و بالتالي فمعناها في علم الطباع هي : الانجذاب العاطفي إلى كل ما هو ميت و متفسخ و متعفن و سقيم ؛ إنها الشغف بتحويل ما هو حي إلى شيء غير حي ، و قد حاول فروم تحليل الشخصية النيكروفيلية انطلاقا من الأحلام و علاقتها الوثيقة بالشخصية و سلوكات الفرد و رغباته المكبوتة، ليشير بعد ذلك إلى الأعمال النيكروفيلية غير المقصودة ، و إلى اللغة النيكروفيلية ، ليبحث في الأخير عن علاقة النيكروفيلية بعبادة و وثنية التقنية ، كل هذا يحيل إلى أن النيكروفيليا هي الجوهر الحقيقي للشر.

الخوض في الحداثة والنظر إلى مآلات الذات الإنسانية يضعنا بصفاتنا أمام مفارقة

وتناقض صارخ، فإذا كانت الحداثة صيغة مميزة للحضارة الأوربية تعارض صيغة القديم وتقف في وجه كل تقليد. وهي كما عرفها الفرنسي رولان بارت (Roland Barthe 1915-1980)"زلزال حضاري عنيف و انقلاب ثقافي شامل لم يتوصل الانسان المعاصر إلى السيطرة عليه ، إذ هي موقف شامل و معارض للثقافات التقليدية الشاملة السائدة ، فالحداثة تدعوا إلى إعادة النظر في كثير من الأشياء و التحرر من القيود ، فهي عملية تقدمية حتى و لو كان المخاض عسيرا ، فهي تنشد عصرا جديدا اقترن بالتطور و التقدم و تحرر الانسان" (النحوي، 2016، صفحة 18).

وهي كظاهرة كشفت على أنها تقوم على جملة من المبادئ. كان أهمها " الذاتية " فعملت على تبجيل الذات الإنسانية وجعلها المركز الذي تدور حوله كل الأشياء "أي تنصيب الإنسان ككائن مستقل وواع، وفاعل ومالك للحقيقة" (سبيلا، 2007، صفحة 65)، فإن إسقاط هذه المعاني على إنسان هذا العصر يجعلنا نلمس تعارضا كبيرا وتناقضا صارخا يستوجب التوقف عنده.

تتضمن الحداثة الكثير من الأزمات منها الاغتراب، التشيؤ، صنمية الاستهلاك ، سطوة التقنية ،خواء الحياة الروحية و القيمية ... وهي بمثابة أمراض تنهش جسم الانسان المعاصر و تهدد وجوده . فقد خلقت الحضارة الغربية مجتمعا لا إنسانيا، تنعدم فيه عرى التواصل والتماسك بين أفراده، مجتمع يعد فيه كل فرد ذرة منفصلة عن الآخر، وكل فرد يعاني من الإحباط والعجز جراء التزايد الخطير لتلك الوسائل والأدوات غير الإنسانية خاصة بعد الثورة الصناعية التي أحلت الآلة محل الإنسان.

3-عقيدة التملك وعبادة السلع:

يؤكد " فروم " أن المجتمع الغربي قد حقق فعلا أمورا كثيرة لافتة خاصة ما يتعلق بالثروة المادية و الثورة التكنولوجية، لكن هذا لا يعني أنه مجتمع قوي و سليم فالحماس من أجل السيطرة على الطبيعة و اللهث وراء زيادة إنتاج السلع المادية ساهم

في تحويل الوسائل إلى غاية ، رغم أن الشعار الذي يحمله و تتباهى به الحداثة هو إعطاء الانسان أكبر إمكانية لحياة كريمة ، لكن الواقع قد أبان عن شيء آخر وهو أن الإنتاج والاستهلاك توقفا عن كونهما وسائل و أصبحا مجرد غايات فصار الانسان ينتج بجنون و يستهلك بطريقة مرعبة و غير عقلانية و صار على نحو متزايد و مقلق جزءا من آلة كبيرة تحكمها بيروقراطية كبيرة ،ومن زاوية يكره عمله الذي يشعر بأنه يقيده و يحد من حريته و يعمل على تبديد معظم طاقته في شيء لا معنى له ، فكسب المال لا يكفي إذا كان الانسان يقضي معظم يومه في عمل لا معنى له .

و فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية و مشاعر الأفراد ،فإنها – حسب فروم – سطحية نسبيا ، فنحن نخاف بصورة أو بأخرى من أن تجمعنا بالبعض علاقة حميمية، و قد أكدت العديد من الدراسات أن الإنسان الأمريكي العادي بصورة خاصة لا يهتم إلا بشؤونه الخاصة و لا يلتفت إلى ما يربطه بالمجتمع ، فهو يرى بأنه منفصل عن وجوده الاجتماعي ، و إلى جانب ذلك نجد أن الانسان المعاصر قد ابتعد عن القيم الدينية و الأخلاقية حتى الحرية التي كان ينعم بها و عمل بجد من أجلها قد ضاعت منه ، فأصبح مجرد عبد يعيش ضياعا و تيها في وسط عالم ملئ بالسلع

و الأسواق، هدفه الأسمى هو الامتلاك (POSSISSION/OWNERSHIP.)

إن الطبع المهيمن في المجتمع الرأسمالي الصناعي المعاصر عمل على إرهاق الفرد نفسيا و تعميق مشاعره بالاستلاب فقد طغى التملك و العدنية على حياته، فالذي لا يملك شيئا لا يساوي بالضرورة شيئا، و بذلك صار يقال عن فرد من الأفراد أنه " يساوي مليون دولار " ، و قد ناقش فروم مشكلة التملك و الكينونة أو الامتلاك و الوجود (TO HAVE OR TO BE ?) بشكل مفصل و أعطاها مساحة كبيرة في بحثه عن أزمة الانسان و المجتمع المعاصر، فهذا الأخير – المجتمع الصناعي الغربي – صار أكثر ما يميزه هو التوجه نحو التملك ما جعله متمركزا حول الأشياء لا على الأفراد، و بذلك أصبحت الرغبة الشديدة الجنونية في المال و الشهرة و القوة هي المسيطرة على ثقافة المجتمع.

و قد أعلن " فروم " حالة الطوارئ في هذا المجتمع الذي أنهكه الاستهلاك المفرط و الاقتناء اللاعقلاني ، فصار حال الانسان هذا كحال من يستخدم عكازات بدل رجليه- رغم سلامتهما - و قد برزت بذلك مشكلة ظهور نمطين من الوجود تتميز العلاقة بينهما بالصراع، الأول الذي نتحدث عنه ما دام هذا المقال يعالج الوجه السلبي للحضارة هو نمط التملك " لأننا نعيش في مجتمع ركائزه هي الملكية الخاصة و الربح و السلطة ، فإن معاييرنا و أحكامنا شديدة التحيز ، ففي المجتمع الصناعي ، الحقوق المقدسة المسلم بها للفرد هي حقوق التملك و الاقتناء و تحقيق الأرباح" (فروم، 1989، صفحة 71). هذا ما يجعل أسلوب التملك هو الأساس الجوهري لمجتمع الاقتناء و تحقيق الاستحواذ والاكتناز و الجشع حتى صار نموذجا للسعادة و رمزا للقوة و بشيرة للخلاص الروحي و لا ينكر فروم بأن هذا النمط الإمتلاكي موجود في الانسان و له جذور عميقة في النفس والطبيعة الإنسانية ، فللحاجات المادية التي ينزع الانسان لامتلاكها قوة مؤثرة لارتباطها بصورة كبيرة بحفظ البقاء و الاستمرار في الوجود .و بالتالي فلا تستقيم حياته دون امتلاكه لأشياء يحقق بها وجوده ، إلا أن هذا النمط يصبح مذموما عندما يصبح هو الغالب و المشكل لكل نواحي الحياة ، فهو يؤدي في الأخير بالإنسان إلى العبودية ، يعبد الأشخاص و الأشياء و السلع .

و قد ساهم المجتمع الليبرالي في ذلك عندما نمى مظاهر المال و الشهوة و القوة بترسيخ ثقافة التملك ما جعل راية التقدم تسقط و يتبدد ذلك الحلم و يختفي شعار التقدم الذي لا يحده و يوقفه شيء، حلم السيطرة على الطبيعة و تسخيرها لخدمة الانسان، حلم الحرية المطلقة و السعادة القصوى للجميع. هكذا انتهى الوهم و أدرك عدد ليس بالهين من الناس أن الحياة الطيبة السليمة و السبيل إلى السعادة ليس مرهونا بإشباع كل الرغبات بصورة مطلقة أي بغير قيد أو شرط، و عرفوا أن ذلك الحلم الذي طالما راودهم بأنهم أحرار و سادة أفعالهم و حياتهم قد انتهى، لأنهم كما يقال أصبحوا مجرد تروس في الآلة الرأسمالية.

ولكن لماذا يعتبر نمط وثقافة التملك أمر مذموم ومرض من أمراض هذا العصر في نظر فروم؟

السبب هو أن الانسان عندما يفقد ما يملك " لن يبقى سوى شاهد مهزوم متضائل، مثير للشفقة...شاهد على أسلوب حياة خاطئ فحيث أني أفقد ما أملك فأنا بالضرورة في قلق و خوف دائمين من إمكان حدوث هذا" (فروم، 1989، صفحة 117) حتى أنه يعيش الخوف من الحرية و من التطور . و ما دام المجتمع هو مجموعة من الأفراد ففي هذه الحالة سيكونون أفرادا مرضى غير أسوياء، الشيء الذي سيخلق مجتمعا مفككا يفتقر إلى أدنى سبل الراحة رغم التقدم المادي و التكنولوجي الهائل الذي بلغه.

لقد بحث اريك فروم في أبعاد وأشكال هذه الأزمة التي أصبحت تهدد الوجود الإنساني ولم تعد تعبر عن تلك القيم التي كانت تهدف إليها فلسفة الأنوار وتسعى إلى ترسيخها. يقول في هذا الصدد: " كل مقولات سيرورة الوجود تتحول إلى مقولات متعلقة بالتملك، إن الذات الساكنة والتي لا تتحرك ترتبط بالعالم في إطار أنا أملك أشياء بينما النفس ترتبط بالعالم في سيرورة المشاركة ، وأن الإنسان الحديث لديه كل شيء، سيارة، منزل، عمل... مشكلات، اضطرابات، اشباعات، وإذا كان ليس كافيا فإن لديه المحلل النفسي الخاص به، إنه (يكون) لا شيء" (فروم، 2010، صفحة 135).و كأن ذلك ينطبق على الطرح القائل أن الانسان كلما زاد تملكا زاد فقدانا لذاته.

إن فعل العقلانية الأداتية والاستهلاك المروع الذي تقف وراءه ترسانات الإنتاج العملاقة حول الإنسان إلى حالة كمية محسوبة حسب منطق التبادل الرأسمالي اللاإنساني المخيف فأزمة الإنسان المعاصر في المجتمعات الغربية هي في الأساس أزمة عقل، هذا الأخير الذي تحول من عقل تنويري إلى عقل أداتي (من قيم التنوير إلى قيم التدمير) بسبب الارتباط بالنزعة الوضعية وخطابها الذي جعل العقل أداة لمعرفة الطبيعة والتحكم فيها فقط "والعقل الأداتي هو العقل المنصرف إلى كل ماهو عملي تطبيقي ونفعي بموجب النزعة الوضعية التي اختزلت وظيفة العقل في معرفة ما هو معطى بوصفه كذلك، أي الاكتفاء بالمنهج التجريبي واعتبار الرياضيات لغة العقل ... لهذا السبب تم استبعاد القيم الدينية والجمالية والأخلاقية والفلسفية بما أنها لا

تتطابق مع معايير الحساب والكم" (بومنير، 2010، صفحة 16).وبذلك تفوقت الآليات المادية للسوق على المبادئ الإنسانية و الأخلاقية.

ومما يعتبر جوهر اغتراب الذات عند فروم العبادة الصنمية أو عبودية الأشياء وخضوع الإنسان لما يصنع بيده إلى درجة تحول هذه الأشياء إلى آلهة، يقول عن ذلك فيصل عباس "خضوع الإنسان للأشياء أو العبادة الصنمية هي لا تعني أن الإنسان يعبد عدة آلهة، وإنما يعني عبادة ذلك الشيء الذي يصنعه بنفسه، وفي هذا العمل يتحول الإنسان إلى شيء، إذ ينقل كل ما هو إنساني في داخله إلى الصنم، بدلا من أن يحقق نفسه كذات أصيلة فإنه يحقق ذاته بشكل مزيف عن طريق الخضوع للصنم، فكلما نقل الإنسان إمكانياته وصفاته الإنسانية إلى شيء خارجه كلما أصبح هذا الشيء أقوى" (عباس، 2008، صفحة 361).و معنى ذلك أن الإنسان يبذل كل طاقاته ويضع مجمل قدراته ووسائله لتحقيق شيء واحد هو صناعة وثن من أجل شيء واحد هو عبادته!

والوثن أو الصنم بمعناه الحديث يتخذ عدة صور وأنماط هي؛ عبادة المال والشهرة، السلطة والزعيم... ويبدوا أن ما يقصده "فروم" بعبودية الإنسان للأشياء أو العبادة الصنمية " يتضمن أي فعل خضوعي بمقتضاه يغترب الإنسان عن ذاته، ولن نجاوز الحقيقة إذا استخدمنا عبارة العبادة الصنمية كبديل لعبارة الاغتراب عن الذات (حماد، 2005، صفحة 129). هكذا يرمي الانسان الحديث نفسه في أحضان الأشياء المادية التي غالبا ما تكون من صنع يديه.

4.خاتمة

حاصل القول إذن إن الحضارة الغربية أنتجت مجتمعا ماديا لا إنسانيا، تنعدم فيه عرى التواصل والتماسك بين أفراده، مجتمع يعد فيه كل فرد ذرة منفصلة عن الآخر، وكل فرد يعاني من الإحباط والعجز جراء التزايد الخطير لتلك الوسائل والأدوات غير الإنسانية خاصة بعد الثورة الصناعية التي أحلت الآلة محل الإنسان.

و عليه فالحداثة لم تحقق ما رسمته أو ما رسمه لها أقطابها الفاعلون، و إنما على العكس من ذلك خلقت أزمة وأبانت عن زيف المجتمع الغربي وأنتجت في الأخير إنسانا مريضا غير سوي في نظر فروم ، فهي في نظر فروم ساهمت بصورة جلية في ضياع الذات الإنسانية و وانمحائها، فيكفي أن تفتح عينيك على الواقع لتلمس ذلك بعيدا عن أكذوبة التطور و وهم التكنولوجيا ، فنحن نعيش في قرن عدم الارتياح – المرض المزمن – أو كما يسميه عالم النفس النمساوي " سيغموند فرويد" (SIGMUND FREUD 1856-1939) عدم الارتياح الموجود في الثقافة.

وبالتالي ظهرت نتائج العلم وشعارات الحداثة على أنها مجرد وهم جعلت مصير الانسان وكينونته أزمة عميقة تضرب بقواعد وأسس المجتمعات الغربية الحديثة وقد اعتبر" فروم "عزوف الانسان عن الحياة وابتعاده عن عيش الواقع الفعلي الحقيقي وهروبه من الحرية والارتماء بالتالي في واقع وهمي مصطنع بأنه أزمة كبيرة وخطر جارف سيعصف بكيانه ويجعل منه في الأخير مجرد جزء من الآلة.

إن المجتمع الغربي المعاصر الذي عمل على إنماء التقنية وتسريع عملية تطورها على حساب قيمة الانسان وتحت شعار حريته وسعادته وتسيده على الطبيعة واستغلالها لصالحة قد ساهم بطريقة عكسية في تدميره وفقدان حريته.

و قد أصاب رواد مدرسة فرانكفورت عندما وصفوا هذه القيمة خاصة -الحرية -بسمة " السلب "، لأننا نعيش في عصر غياب الحرية و ارتماء الانسان في أحضان الفاشيات والشموليات و حكم الخبراء و وسائل الإعلام و صناعة الثقافة كحل نهائي فبعد انتشار الأنظمة الفاشية و الشمولية في القرن العشرين بدأت الجماهير تتخلى عن حرياتها وتلتف حول أنظمة شمولية تعدها بالأمان و الازدهار .

قائمة المصادر والمراجع:

اريك فروم. ***الانسان بين الجوهر و المظهر***. (ترجمة سعد زهران) الكويت، الكويت: عالم المعرفة. (1989).

اريك فروم.. ***تشريح التدميرية البشرية***. (ترجمة محمود منقذ الهاشمي) دمشق، سوريا: منشورات وزارة الثقافة. (2006).

اريك فروم. ***ثورة الأمل نحو تكنولوجية مؤنسة*** (الإصدار 1). (ترجمة مجاهد عبد المنعم مجتهد) القاهرة: دار الكلمة. (2010).

اريك فروم. ***كينونة الانسان*** (الإصدار 1). (ترجمةحمد حبيب)سوريا: دار الحوار و النشر. (2013).

بن عامر حكيمة. ***اريك فروم و مشروع فرانكفورت النقدي***. مجلة مركز نماء للبحوث و الدراسات (137). . (2000)

بيتر يروكر. ***الحداثة و مابعد الحداثة***. (ترجمة عبد الوهاب علوب) أبوظبي الامارات: منشورات المجمع الثقافي. (1995).

زعربان علي رضا النحوي.. ***تقويم نظرية الحداثة*** (المجلد 1). الرياض، السعودية: دار النحوي للتوزيع و النشر. (2016).

عبد الوهاب المسيري و فتحي التريكي.. ***الحداثة و مابعد الحداثة*** (المجلد1). دمشق ، سوريا: دار الفكر. (2003).

فتحي التريكي. ***فلسفة الحداثة***. بيروت، لبنان: مركز الانماء القومي. (2008).

كمال بومتير. ***النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت***. الجزائر: منشورات الاختلاف. (2010).

محمد سبيلا. ***الحداثة و ما بعد الحداثة***، المغرب: دار توبقال للنشر. (2007).

حسن حماد. ***الانسان المغترب عند اريك فروم***. القاهرة، مصر: مكتبة دار الكلمة 2005).

فيصل عباس. ***الاغتراب(الانسان المعاصر و شقاء الوعي)***. بيروت، لبنان: دار المنهل اللبناني. (2008).